﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عهدُ اللهِ تعالى بإرسالِ الرُّسلِ، لا يَضرُّهُ تكذيبُ المُعتدِين

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ قصّةَ نوحٍ ﷺ وتكذيبَ قومِهِ لهُ بعدَ أن بيّنَ لَهُم الآياتِ الدّالّةَ على الحقِّ، وما حلَّ بهم، بيّنَ أنّ بعْثَ اللّه الرّسلَ بالبيّناتِ إلى قومِهِم، استمرَّ كما أنّ تلك الأقوامَ تعاهدَت على الكفرِ والاعتداءِ، "ولمّا لم يكُنْ في قَصَصِ مَن بَينَهُ وبينَ مُوسى ﷺ ممّا يُناسِبُ مَقصودَ هذه السُّورةِ إلّا ما شَارَكُوا فيهِ قومَ نُوحٍ مِن أنّهُم لَم تَنفعِ الآياتُ مَن أُريدَت شقاوتُهُ منهُم، ذَكَرَهُ سبحانَهُ طاوِيًا لِما عَداهُ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثْنَا﴾: بعثَه، كمنعَه، يبعثُه بعثًا: أرسلَهُ وحدَهُ. وبعثَ بهِ: أرسلَهُ مع غيرِهِ، كابتعثَهُ ابتعاثًا فانبعثَ... والبعثُ في كلامِ العربِ على وجهين: أحدُهما: الإرسالُ، كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]؛ معناهُ: أرسلنا. والبعثُ: إثارةُ بارِكٍ أوقاعِدٍ. والبعثُ أيضًا: الإحياءُ مِنَ اللّه لِلمَوتَى، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: 56]؛ أي: أحييناكُم[2]، والبعثةُ في المفهومِ اللُّغويِّ تدلُّ على الإرسالِ والتّوجيهِ[3]، وعلى مستوى الاصطلاحِ البعثةُ: هي إرسالُ الأنبياءِ مِن قِبَلِ اللّه تعالى إلى سائرِ النّاسِ؛ لإبلاغِهِم مُرادَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/166 - 167.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بعث).
(3) الخليل، العين: 2/112، والجوهريّ، الصّحاح: 1/273.

اللّه منهم، ودعوتِهم إلى التّوحيدِ ونبذِ الشّركِ، والالتزامِ بالمنهجِ الأخلاقيِّ، في ترسُّمِ القيمِ، وشحذِ الهممِ مِن أجلِ تحقيقِ عبوديّةِ اللّه على الوجهِ الأكملِ.

2) ﴿نَطْبَعُ﴾: الطّبعُ مِن قولِهم: طُبِعَ الرّجلُ على الشّيءِ طبعًا، إذا جُبِلَ عليه، والطّبيعةُ: الخليقةُ الّتي جُبِلَ عليها، وفَسَّرَ أبو عبيدة قولَهُ ﷻ: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التّوبة: 87]؛ أي: غطّاها[1]، وقولهم: (قد طُبِعَ على قلبِ فُلانٍ)، قالَ أبو عبيدة: معناه: قد غُشِيَ على قلبِ فُلانٍ بالصّدأ والدّنَسِ والوسخِ، قالَ اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم: 59]، وجاءَ في الحديثِ: «تعوّذوا باللّه من طَمَعٍ يُدني إلى طَبَعٍ»[2]، وقالَ الشّاعرُ:

لَا تَطمَعَنْ طَمَعًا يُدنِي إلَى طَبَعٍ *** إنَّ المَطَامِعَ فَقْرٌ وَالغِنَى اليَاسُ[3]

المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمةُ اللهِ بإرسالِ الرُّسلِ، لا تتوقَّفُ بكفرِ الكافرينَ عبرَ الزّمانِ

يخبرُ اللّه تعالى أنّهُ قد أرسلَ مِن بعدِ نوحٍ عليه السلام "رُسُلًا آخرين، داعينَ إلى التّوحيدِ، ومُبشّرينَ ومُنذرينَ، ومُؤيَّدينَ بالمُعجزاتِ الدّالّةِ على صدقِهم، فكذّبَت أقوامُهُم كما كذّبَ قومُ نوحٍ، فما كانَ مِن شأنِ الجاحدينَ منهُم أن يُذعنوا؛ لأنّ التّكذيبَ سَبَقَ التّبصُّرَ والاعتبارَ، وبذلك طَبَعَ اللّه الباطلَ على قلوبِ الّذين مِن شأنِهِمُ الاعتداء على الحقائقِ وعلى البيّناتِ"[4]، والمرادُ مِن ذلك تحذيرُ الحاضرينَ في زمانِ النّبيِّ ﷺ؛ "أي: كما حَلَّ بهؤلاءِ يَحِلُّ بِكُم"[5].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طبع).

(2) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/335، والحديثُ موجودٌ في غريبِ الحديثِ: 2/218، قال الحاكمُ: مستقيمُ الإسنادِ، وأقرَّهُ الذّهبيّ، لكن قالَ الهيتميّ: إنّ في رواية أحمد والطّبرانيّ عبدَ الله بن عامر الأسلميّ، وهو ضعيفٌ.

(3) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/335.

(4) جماعة من العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالحرفِ (ثمّ):

تـوالي الـرُّسـلِ مِـن بـعـدِ نـوحٍ إلى أقـوامِـهـم؛ لإقـامـةِ الحُـجَّـةِ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بـ (ثمّ)؛ للدّلالةِ على أنّ ذلكَ قد وَقَعَ بعدَ زمانٍ طويلٍ[1]، ويحتملُ المرادُ بـ (ثمّ) التّراخي الرُّتبيّ؛ "لأنّ بعثةَ رسلٍ كثيرينَ إلى أُمَمٍ تَلَقَّوْهم بِمِثلِ ما تَلَقَّى بهِ نُوحًا قَومُهُ أعجَبُ مِن شَأنِ قَومِ نُوحٍ، حيثُ تَمالَأَتْ تِلكَ الأُمَمُ على طريقةٍ وَاحدةٍ مِنَ الكُفرِ"[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿بَعَثْنَا﴾:

بَـعـثُ رسـالـةِ الـلـهِ عـلـى أيـدي الـرُّسـلِ تجديدٌ لِلبلاغِ على المَدى

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ التّعبيرَ بالبعثِ دونَ الإرسالِ؛ لأنّ البعثَ أعمُّ؛ لأنّه "يجوزُ أن يُبعَثَ الرّجلُ إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّهُ دونَكَ ودونَ المبعوثِ إليهِ، كالصَّبيِّ تبعثُهُ إلى المكتبِ، فتقول: بعثْتُهُ، ولا تقولُ: أرسلتُهُ؛ لأنّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجري مَجرَاها"[3]، فعَبَّرَ بالبعثِ؛ لأنّه لا يقتضي أن يتضمَّنَ رسالةً، بخلافِ الإرسالِ الّذي يقتضي أنّ المُرسَلَ معهُ رسالةٌ، فلمّا ذَكرتِ الآيةُ تتابعَ المُرسَلينَ إلى قومِهم، وكانَ بعضُهُم لا يحملُ رسالةً تتضمَّنُ شريعةً؛ كانَ التّعبيرُ بالبعثِ أنسبَ وأصلحَ. "كلمةُ البعثِ تُشْعِرُكَ بوجودِ شيءٍ، ثمّ انتهاءِ الشّيءِ، ثمّ بعثِ ذلك الشّيءِ مِن جديدٍ... ولم يكُنْ مِنَ المعقولِ أن يَخلقَ اللّه سبحانَهُ البشرَ، ويجعلَ لهم الخلافةَ في الأرضِ، ثمّ يتركَهُم دونَ مَنهجٍ؛ وما دامَتِ الغفلةُ قد طرأت عليهم مِن بعدِ آدمَ ﷺ جاءَ البعثُ لِلمَنهجِ على ألسنةِ الرُّسلِ المبلّغينَ عنِ اللّه تعالى[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/244.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6116.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿بَعَثْنَا﴾:

عظمةُ اللهِ تبعثُ ألطافًا تحيطُ بالمُرسَلِ والمُرسَلِ إليهِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بضميرِ التّعظيمِ في البعثِ؛ لأنّه بعثٌ عظيمٌ، إذ إنّه صادرٌ عن المولى الجليلِ، يحملُ تعاليمَ تَحفظُ القيمَ السّاميةَ الّتي تحتاجُ إليها حياةُ النّاسِ، وتعرّفُهم بالمنهاجِ القويمِ، كما أنّ فيه دلالةً على أنّ مُقتضَى عظمتِهِ ﷻ، أن يُرسِلَ الرُّسلَ إلى أقوامِهم؛ ليعرّفوا النّاسَ بخالقِهم العظيمِ، فكما يَظهَرُ فإنّ العَظمةَ تُحيطُ بهذا البعثِ، فكانَ مِن حُسنِ البلاغةِ أن يُعبَّرَ بضميرِ التَّعظيمِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ مع الظَّرفِ في ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ﴾:

الإشارةُ إلى استيعابِ المُرسَلينَ لكلِّ مَراحلِ الزّمانِ بعدَ نوحٍ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ قَيَّدَ النّصُّ الكريمُ، أنّ البعثَ كائنٌ مِن بعدِهِ، ولم يقُلْ: (ثمّ بعثنا رسلًا)؛ لأنّ الظّرفَ (بعد) يدلُّ على زمانٍ مُطلَقٍ غيرِ مُقيَّدٍ، فلمّا أدخلَ حرفَ الجرِّ (مِن) الدّالِّ على الابتداءِ، بيّنَ أنّ ابتداءَ البعثِ بعدَ نوحٍ ﷺ لم يَستغرِقْ زمانًا طويلًا، وهذا لا يَتعارَضُ مع دلالةِ (ثمّ)، إذِ الطّولُ والقصرُ في الزّمانِ نسبيٌّ.

غرضُ تنكيرِ ﴿رُسُلًا﴾:

ثبوتُ الحُجّةِ على الخلقِ بتَعاقُبِ الرُّسلِ مِن عَدلِ اللهِ وحكمتِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ في لفظِ الرُّسلِ؛ "للتَّفخيمِ ذاتًا ووصفًا؛ أي: رُسُلًا كِرامًا ذَوي عَدَدٍ كَثيرٍ"[1]، والتّنكيرُ فيه إبهامٌ في المذكورِ، والإبهامُ يزيدُ ذا الهَيبةِ هَيبةً وفَخامةً، كما أنّهُ يدلُّ على التّكثيرِ، فرُسُلُ اللهِ تعالى كثيرون، والتّنكيرُ أدلُّ على التّكثيرِ.

إبهامُ الرُّسلِ هنا، وذِكرُهُم في مَواضِعَ أخرى:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أبهمَ النّظمُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.

الإيـجـازُ في التّعبيرِ اكتفاءً بتفصيلِ المُوجَزِ في سياقٍ آخرَ

الكريمُ ذِكرَ الرُّسلِ ولم يُسَمِّهِم، ومنهم هودٌ وصالحٌ وإبراهيمُ ولوطٌ وشعيبٌ ﷺ، فأخبرَ أنّه أرسلَهُم بالبيّناتِ، وأنّ أقوامَهُم جَرَوا على مِنهاجِ قومِ نوحٍ في التّكذيبِ، ولم يَزجُرْهُم مَا بلَّغَهُم مِن هلاكِهِم[1]. وإنّما أبهَمَ ذكرَهُم؛ لأنّ المرادَ بيانُ استمرارِ الأقوامِ بتكذيبِ أنبيائِهِم، فعبَّرَ عن ذلكَ بذكرِهِم بطريقةِ الإيجازِ، ثمّ أفضى إلى قصّةٍ أخرى مِن قَصصِ أولي العزمِ.

دلالةُ تخصيصِ كُلِّ أمّةٍ برسولٍ:

بَـعْـثُ الـرُّسـلِ بالرِّسالاتِ على فـتراتٍ، تجديدٌ لِلعهدِ مع اللهِ باطّرادٍ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ بيّنَ النّصُّ الجليلُ أنّ اللّه تعالى خصَّ كلَّ قومٍ برسولٍ منهُم، فكلُّ رسولٍ يُرسَلُ إلى قومِهِ، وذلكَ لِمَا لِصلةِ القرابةِ مِن أثرٍ في الدّلالةِ على تأكيدِ أنّهُ ناصحٌ لهم، ومُشفِقٌ عليهم، فيكون أدعى لِتصديقِهِم لهُ؛ لأنّ النّاسَ اعتادوا على أن يَثقوا بمَن هو منهُم، ولاسيّما في أهمِّ شأنٍ، وهو شأنُ الدّينِ والاعتقادِ، فكانَ لا بدَّ أن يكونَ الرّسولُ خاصًّا بالأمّةِ.

سرُّ الإضافةِ في ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾:

إرسـالُ الرَّسولِ على مبدأ صلةِ القـرابـةِ، أدعى إلى الـشّـفـقـةِ والتّصديقِ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أضافَ النّصُّ الجليلُ لفظَ القومِ إلى ضميرِ الرُّسلِ، والمرادُ أقوامُهُم " لكنْ لا بأنْ أرسَلنا كُلَّ رسولٍ منهُم إلى أقوامِ الكُلِّ، أو إلى قومِ مَا أيَّ قومٍ كانوا، بل كُلَّ رسولٍ إلى قومِهِ خاصّةً"[2]، فكلُّ رسولٍ مِن أولئكَ الرُّسلِ الكرامِ ﷺ، أُرسِلَ إلى قومِهِ وحسب، وهذا يُستفادُ مِن إضافةِ القومِ إلى ضميرِهِم[3].

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَمَا كَانُوا۟﴾:

لو لم يكُنْ بعثٌ بهدايةِ الإيمانِ، لَمَا ظَهَرَ طغيانُ الكفرانِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ تدُلُّ الفاءُ على التّفريعِ، فترتَّبَ على إرسالِ الرُّسلِ، أنّ الأقوامَ لم يُؤمِنوا،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/286.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

فانتفاءُ إيمانِهم ترتَّبَ على الإرسالِ، ولو لم يُرسلِ الرُّسلَ لَمَا ظهرَ كفرُ أقوامِهم، فمَا بعدَ الفاءِ مُترتِّبٌ ذكرًا ووجودًا على ما قبلَها، ومعنى السّببيّةِ ظاهرٌ فيها، لكن ليسَ على اعتبارِ أنّ البعثَ هو سببُ كفرِهم؛ ولكن على اعتبارِ أنّهُم لم يكونوا لِيُظهِروا هذا الكفرَ، لو لم يكُنْ بعثٌ؛ "أي: فَتَسَبَّبَ عن ذلك ضِدُّ ما أُمِرُوا بهِ، وقامَت دَلائِلُهُ"[1].

دلالةُ النفي في قولِهِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾:

الـكُـفـرُ قـديـمٌ مَـبـثـوثٌ في الأقـوامِ، وبَعثُ الرُّسلِ يُبرزُهُ على الدَّوامِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ يدُلُّ النّظمُ القرآنيُّ على عدمِ توقُّعِ الإيمانِ منهم مُستقبَلًا، فالإمكانُ غيرُ مُتوقَّعٍ، ولو بقدرٍ يسيرٍ، "فما كانَ إيمانُهُم إلّا مُمتنِعًا كالمحالِ لشدّةِ شكيمتِهم في الكُفرِ، وتصميمِهم عليهِ"[2].

دلالةُ النَّفي بصيغةِ الجُحودِ في الآية:

الـجـمـودُ على الـكُـفـرِ ظُـلـمٌ لِمَـدارِكِ العقلِ والوجدانِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ جاءَ النّفيُ في الآيةِ بصيغةِ نفي الجحودِ؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في النّفي؛ لأنّ "كانَ المنفيّة المقترنة بلامِ الجحودِ تدُلُّ على المبالغةِ في النّفي تقديرًا، وبذلك نفي الصّحةِ والاستقامةِ"[3]، فهذا النّفيُ يدُلُّ على أنّ إيمانَهُم لم يكُنْ لِيقعَ؛ لأنّهُ مَحكومٌ عليهِ بأنّهُ مُمتنِعٌ مِنَ الوجودِ، فالآيةُ "بيانٌ لاستمرارِ عدمِ إيمانِهم في الزّمانِ الماضي، لا لِعدمِ استمرارِ إيمانِهم كما مَرَّ مِثلُهُ في هذه السُّورةِ الكريمةِ غَيرَ مَرَّةٍ؛ أي: فما صَحَّ وما استقامَ لِقَومٍ مِن أولئكَ الأقوامِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أن يُؤمِنُوا، بل كانَ ذلكَ مُمتنِعًا منهُم، لِشدَّةِ شكيمَتِهم في الكُفرِ والعِنادِ"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/167.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/49.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/90.

دلالةُ تأصُّلِ الكُفرِ قبلَ مجيءِ الرُّسلِ وبعدَهُ:

مَن كذَّبَ بمَنهجِ اللهِ في الاعتقادِ لَـزِمَ الإصـرارَ، ولـو خـالَـفَ كـلَّ العبادِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ دلَّ القَيْدُ ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾، بأنّ هناك تكذيبًا وَقَعَ قبلَهُ، وأنّ الأقوامَ "لم يُقلِعُوا عَن تَكذيبِهِمُ الّذي قابلُوا بِهِ الرُّسُلَ؛ لأنّ التّكذيبَ إنّما يكونُ لِخَبرٍ مُخبرٍ، فَقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مُؤذِنٌ بِحُصولِ التّكذيبِ، فلمّا كذَّبُوهُم (جاءُوهُم بالبَيِّنَاتِ) على صدقِهِم، فاستَمَرُّوا على التّكذيبِ فما كانُوا لِيؤمِنُوا بما كذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ"[1].

بلاغةُ إيجازِ الحذفِ في الآيةِ:

كـلّـمـا كـانَ السّياقُ مُوجَزًا كـانَ انـقـداحُ المعاني في الذّهنِ أكثرَ وأكبرَ

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حَذَفَ جُملًا كثيرةً يقتضيها السّياقُ؛ قولُهُ: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ "يقتضي تَكَرُّرَ الدَّعوةِ وتَكَرُّرَ البَيّناتِ، وإلّا لَما كانَ لِقولِهِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ وَقْعٌ؛ لأنّ التّكذيبَ الّذي حَصَلَ أوّلَ مَرّةٍ، إذا لَم يَطرَأ عليهِ ما مِن شأنِهِ أن يُقلِعَهُ، كانَ تكذيبًا واحدًا مَنسيًّا، وهذا مِن بلاغةِ معاني القرآنِ"[2]، فهو مُؤذِنٌ بِحُصُولِ التَّكذيبِ، والتّقدير: (فَلَمَّا كذّبُوهُم جاؤُوهُم بالبَيِّنَاتِ عَلَى صِدقِهِم فَاستَمَرُّوا عَلَى التَّكذِيبِ).

دلالةُ مَوقعِ الجملةِ البيانِيِّ في ختامِ الآيةِ:

تـسـاؤلٌ عـن دوامِ الـطَّـبـعِ عـلـى الـقـلـوبِ، وتـجـدُّده في الأجيالِ اللّاحقةِ

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ فلمّا "قرَّرَ عدمَ انتفاعِهِم بالآياتِ، بَنى ما يَليهِ على سُؤالِهِ مَنْ لعلَّهُ يقولُ: هَل استمَرَّ الخَلقُ فيمَن بعدَهُم؟ فَكَأنَّهُ قِيلَ: نَعَم! ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِثلَ مَا طَبعنا على قلوبِهِم هذا الطَّبعَ العَظيمَ ﴿نَطۡبَعُ﴾؛ أي: نُوجِدُ الطَّبعَ ونُجَدِّدُهُ متى شِئنا، بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

عِلَّةُ اختصاصِ (القلوب) بقولِهِ: ﴿قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

شناعةُ التَّكذيبِ مُتناسِبَةٌ مع فظاعةِ الطَّبعِ على القلبِ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ذَكَرَ النّظمُ الكريمُ أنّ اللّه تعالى قد جَعَلَ الطّبعَ على القلوبِ جزاءً لَهُم؛ وإنّما جَعَلَ جزاءَهُم ذلك؛ لأنّ تكذيبَ الرّسالاتِ شنيعٌ وجرمٌ كبيرٌ، فناسبَهُ أن يكونَ الجزاءُ مُوافقًا لِتلكَ البشاعةِ، فكانَ الطَّبعُ على قلوبِهِم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَطۡبَعُ﴾:

مَن طَبَعَ على قلبِهِ فلا أملَ لهُ في إيمانٍ ولا نجاةٍ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَبَّرَ بالفعلِ ﴿نَطۡبَعُ﴾؛ للدّلالةِ على الحيلولةِ دونَ تأثُّرِ قلوبِهِم بالبيّناتِ، وتأثيرِها فيهِم، "فَإنَّ الطَّبعَ مُؤذِنٌ بأنَّ قُلُوبَهُم قَد وَرَدَ عَلَيها ما لَوْ خَلَت عندَ وُرُودِهِ عَنِ الطَّبعِ عَلَيها لَكانَ شَأنُهُ أن يَصلَ بِهِم إلى الإيمانِ"[1].

دلالةُ التَّمثيلِ والإشارةِ في ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾:

جُعِلَ طَبْعُ القُلُوبِ قديمًا يَتشابَهُ مع طبعِها حديثًا

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، عَبَّرَ باسمِ الإشارةِ؛ لِلإشارةِ إلى الطَّبعِ العظيمِ المُحكَمِ[2]، وقد جُعِلَ الطّبعُ الّذي وَقَعَ على قلوبِ هَؤلاءِ مَثلًا لِكَيفيّاتِ الطَّبعِ على قُلوبِ المُعتَدِينَ في كُلِّ أوانٍ، فقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ أي: مِثلَ هذا الطَّبعِ العَجيبِ نَطبَعُ على قلوبِ المُعتدِينَ، فَتَأمَّلُوهُ واعتَبِرُوا بِهِ[3].

سرُّ إيثارِ اسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

طُبِعَ على قلوبِهِم طَبعًا بعيدَ المَنزِلةِ في الإحكامِ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ، ولم يقُلْ: (كهذا الطّبع)؛ إشارةً إلى أنّهُ طَبعٌ بعيدٌ في رُتبةِ المَنعِ والشِّدّةِ؛ تعظيمًا له، وإيماءً إلى أنّهُ طبعٌ بحيث لا يَزولُ، فهو طَبعٌ مُحكَمٌ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.

دلالةُ الاستعارةِ في الآية:

القلبُ القاسي لا تنفعُهُ الموعظةُ، كالأرضِ السَّبخةِ لا ينفعُها المطرُ

في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ استعارةٌ مَكنيّةٌ، فاستعارَ الطّبعَ "لعدمِ دُخُولِ الإيمانِ قلوبَهُم"[1]، فشبَّهَ القلوبَ بالشَّيءِ الّذي يُختَمُ عليهِ، فلا يمكنُ أن يتطرَّقَ إليه التّغييرُ، ويمتنعَ دخولُ شيءٍ عليهِ، فكذلك قلوبُ هؤلاءِ امتنعَ دخولُ الإيمانِ عليها، فَحَذَفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى الدّليلَ عليهِ، والجامعُ بينَهُما امتناعُ الدُّخولِ.

دلالةُ (اللّام) في ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

الاعتداءُ يَنطبِقُ على كُلِّ وَصفٍ عُدوانيٍّ مَشينٍ في كُلِّ زمانٍ

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ الألفَ واللّامَ في قولِهِ: ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ للدّلالةِ على جنسِ المُعتدينَ، فالطّبعُ كائنٌ لَهُم "في كُلِّ زَمَنٍ لِكُلِّ مَن تَعمَّدَ العَدوَ فِيما لَا يَحِلُّ لَهُ"[2]، وليسَ المُرادُ قومًا مَعهودينَ بأعينِهِم، فالحُكمُ صالحٌ لكُلِّ زمانٍ، وهو جارٍ مَجرَى الحُكمِ والسُّنّةِ الماضيةِ.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

الطَّبعُ على القلبِ يُناسِبُ يأسَ (المُعتَدِينَ) مِن أملِ الغُفرانِ

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بصيغةِ الافتعالِ دونَ الفعلِ، فلم يقُلْ: (العادين)؛ وقد عَبَّرَ بهِ القرآنُ في دلالةٍ أخرى، حينَ قالَ: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7]. وسببُ إيثارِ لفظِ المُعتدينَ على العادين أنَّ الطّبعَ على القلوبِ مِن أشدِّ الجزاءِ، وهُو حُكمٌ لا يتغيَّرُ فيهم، فناسبَ أن يكونَ للّذينَ قدِ اعتادُوا الاعتداءَ وتكلَّفُوهُ، ولم يجعلْهُ (للعادين)؛ لأنّ توبتَهُ تعالى مَفتوحةٌ لِكُلِّ مَن عدا على الحقِّ مرَّةً أو زادَ، أمّا مَنِ اعتادَ الأمرَ وتمرَّسَهُ، فقدِ استأهلَ أن يَطبعَ على قلبِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]. لقد خَصَّ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عَنِ الذّاتِ الجليلةِ بالضّميرِ مرّةً فقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾، وبالاسمِ الجليلِ مرّةً أخرى فقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، كما أنّهُ خَصَّ كلَّ آيةٍ بخاتمةٍ؛ حيث خُتِمَت الآيةُ الأولى بقولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الثّانيةُ بقولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أمّا التّصريحُ بالاسمِ الجليلِ في الآيةِ الثّانيةِ دونَ الأولى فلأنَّ التّعبيرَ بالضّميرِ في الآيةِ في سورة يونس مُرتَبِطٌ ومُناسِبٌ لما بدأت به الآيةُ؛ حيثُ ابتدأت بقولِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، فأسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ، فنَاسبَ أن يبنيَ عليه قولَهُ آخرًا: ﴿نَطْبَعُ﴾ مُراعاةً للتّناظُرِ والتّقابُلِ[1]. وأمّا الختامُ فخُتِمَتِ الآيةُ الأولى بقولِهِ: ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، والمُرادُ بهِ المُشركونَ؛ لأنّ الشِّركَ ظلمٌ، وهو أشدُّ الاعتداءِ، فإنّهُم كذَّبُوا الرّسولَ ﷺ، فاعتَدَوا على الصّادقينَ بلَمزِهِم بالكذبِ، وقولُهُ في سورةِ الأعرافِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فَهَذا التَّحالُفُ لِلتَّفَنُّنِ في حكايةِ هَذِهِ العِبرَةِ في المَوضِعَينِ[2]، كما أنّهُ يزيدُ مِن بيانِ صفاتِهِم، فبيَّنَ كلَّ مَوضِعِ صفةٍ مِن صفاتِهِم، ولم يُكرِّرْ صفةً واحدةً.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/558.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»